الدّرس الصّوتيّ بين النّص اللّغويّ التّراثيّ والنّص اللّسانيّ الغربيّ بحث في منطق الاشتغال

The phonetic lesson between the traditional linguistic text and the Western linguistic text is a study in the logic of work

د. زهرة طاهر جبار♥

تاريخ الاستلام: 24-12-2022 تاريخ القبـول: 22-05-2023

ملخّص: تنوّعت مداخل النّصّ اللّغويّ في بُعديه التّراثيّ والحداثيّ، ومن ذلك المدخل الصّوتيّ؛ ولعلّ من القضايا الرّائدة في هذا الحقل ما يعرف بالفونولوجيا؛ التي تعنى بالاشتغال على الجانب الوظيفي للنظام الصّوتي اللّغويّ، في سياق تفسير الخصوصيّات الصّوتيّة، وتعمل على توجيهها في بناء المعنى، وتشكيله.

وقد عالج النّص اللّغويّ التّراثيّ عند العرب الصّوت اللّغويّ بمنهج يتحرّى الدّقة والضّبط؛ ومن ذلك مراعاة الخليل التّمازج الصّوتي في اللّغة، وهي مسائل عالجها النّص اللساني الغربي مع دي سوسير، من مدخل أنّ اللّغة فكرة منظمة مقرونة بالصّوت؛ مثل صنيع الخليل الذي يعدّ من صميم البحث الفونولوجي، ويبقى الإشكال المطروح: كيف يحدّد منطق الاشتغال الصّوتيّ بين نصّ لغويّ ضارب بجذوره في التّراث العربيّ، ونصّ لسانيّ متوغّل في الحداثة الغربيّة؟

كلمات مفتاحيّة: الدّرس الصّوتي؛ الدّرس اللّسانيّ الغربيّ؛ النّص اللّغويّ التّراثيّ؛ الفونيم؛ النّظريات الفونولوجيّة الغربيّة.

Abstract: The entrances to the linguistic text varied in its traditional and modern dimensions, including the phonetic entrance; Perhaps one of the leading issues in this field is what is

♥جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجزائر، البريد الإلكتروني: zahradjebar1982@gmail.com، (المؤلّف المرسل).

known as phonology. Which is concerned with working on the functional aspect of the phonemic-linguistic system, in the context of interpreting phonetic peculiarities, and works to direct them in building and shaping meaning.

The traditional linguistic text of the Arabs dealt with the linguistic sound in a method that investigates accuracy and precision. Among this is Al-Khalil's observance of phonetic mixing in language, which are issues that the Western linguistic text dealt with with de Saussure, from the entrance that language is an organized idea associated with sound; Such as Sanea Al-Khalil, which is considered at the core of phonological research, and the raised problem remains: How do you determine the logic of phonetic engagement between a linguistic text rooted in the Arab heritage, and a linguistic text that penetrates into Western modernity?

Keywords: audio lesson; Western linguistic lesson; the traditional linguistic text; phoneme; Western phonological theories.

1. مقدّمة: تمثّل الدّراسات اللّغويّة حلقة مهمّة من حلقات الدّرس اللّغويّ عامّة بل تمثل مرحلة مهمّة من حيث الأفكار والمناهج العلميّة الدّقيقة مقارنة بالعصر الذي ولدت فيه، فكثير من هذه الآراء والأفكار تتّفق مع ما جاء به علم اللّغة الحديث ويمكننا القول إنّ للعرب فضل السّبق والرّيادة في كثير من الآراء في مختلف مجالات اللّغة (النّحو، الصّرف، الصّوت، المعجم، الدّلالة).

فعلم الأصوات اللّغويّة الذي يدرس الصّوت الإنساني، ويحلّل السّلسلة الكلاميّة إلى عناصر صغرى التي يمكن تجريدها، وتبيان كيفيّة انتقالها في الهواء وذكر خصائصها، وتصنيفها على أسس معيّنة، إذ بحث هذا العلم في الأحكام العامّة دون الدّخول في تفصيلات العمليّات العضويّة والقوانين التي تحكمها، واعتمد على أجهزة بسيطة محدودة في إجراء تجاربه على المادة الصّوتيّة.

أخذ علم الأصوات ينهض لاسيما في أوروبا منذ القرن الثّامن عشر بفضل إفادة اللّغويّين من التّقدّم الذي حصل في علم الطّبيعة وعلم وظائف الأعضاء واتصالهم بلغات مختلفة، وانشغالهم بوصفها والمقارنة بين أنظمتها الصّوتيّة، فوقفوا على حقائق صوتيّة لم تكن معروفة لديهم من قبل وأعطوها درجة كبيرة من الضّبط والدّقة.

ولمّا تقدّم الدّرس الصّوتي بفضل الجهود المتواصلة وبمساعدة الأجهزة والآلات استطاع العلماء أن يقفوا على حقائق صوتيّة لم تكن معروفة من قبل، وكذلك النّمو المهم الذي حدث في الدّراسات التّشريحيّة حيث انصبّ اهتمام علماء التّشريح على معرفة العمليات الكلاميّة العضويّة، إذ استفاد منها في علاج عيوب الكلام، فنشأ فرع خاصّ من الدّراسة(phonétique) الفوناتيك يتعاون فيه الطّب وعلم الصّوت.

وفي مقابل ذلك نشأ علم الأصوات الوظيفي (phonologie) على يد الباحث (boudouin de courtenay) ابتداء من سنة 1880، ثمّ تطوّر على يد تروبتسكوي بين (1926 –1938) (أحمد عزوز، د ت)[1] الذي قدّم قانونًا علميًّا في كتابه (مبادئ في الفونولوجيا) أصبح فيما بعد أساسا للسانيات التّبيويّة، الواقع أنّ كثيرًا من مباحث علم الأصوات الوظيفي أسسها العرب قديما إذ كان لهم الفضل في بحث أهمّ قضاياه المتعلّقة بأثر التّجاور بين لبنات الصّيغة من قلب أو إبدال أو إدغام (أحمد عزوز، د ت)[2].

فدرس الخليل «وظيفة الصّوت اللّغويّ عندما يسبقه صوت أخر أو يتبعه صوت ما وكيف يتأثّر هذا الصّوت ويفقد بعض صفاته أو خصائصه التي كان يملكها أو يتّصف بها لحظة كان مفردًا معزولًا ومجرّدًا، ثم كيف يغير الصّوت من معنى الكلمة (عصام نور الدّين، 1992)[3].

فالفونولوجيا يدرس الأصوات مركبة أي في سياقها، فيصب جلّ اهتمامه على وظائف الأصوات في اللّغة المعنيّة ومدى تلاؤمها مع غيرها في بنيّة الكلمة، ويبحث مواقع الأصوات في الكلمات، والعلاقة القائمة بين الصّوت والنّبر، وموقع النّبر في الكلام، ونظام المقاطع، وطرق التّنغيم، وسلوك الأصوات في المفاصل بين الكلمات[4] (أحمد عزوز، د ت).

فقد عالج العرب الدّرس الصّوتي (الفونولوجيا) بمنهج يتحرى الدّقة والضّبط، وقد أصّل له متخذًا من القراءات القرآنيّة مرجعًا له لما أثارته من ملاحظات وتأملات في حقل الدّرس الصّوتي، وقد أثمرت الجهود التّراثيّة نصوصًا جادة قدّمت مقترحات لا تقل أهميّة عمّا توصل إليه الدّرس اللّساني الغربيّ في اشتغاله على الظّاهرة الصّوتيّة

وعليه يبقى الإشكال المطروح: كيف يحدّد منطق الاشتغال الصّوتي بين نصّ لغويّ ضارب بجذوره في التّراث العربيّ، ونصّ لساني متوغّل في الحداثة الغربيّة؟

2. مصطلح الفونيم: الفونيم من المصطلحات اللّغويّة التي يصعب تحديد مفهومها، وقد اختلف مفهوم هذا المصطلح باختلاف الزّوايا التي نظر منها العلماء إليه فمنهم من نظر إليه نظرة تشكيليّة ماديّة تحدّده من خلال أعضائه ومنهم من نظر إلى الفونيم من خلال وجوده العقلي، وليس بوجوده المادي، وهناك فريق رفض النّظرة الماديّة والعقليّة ومال ناحيّة المنظور التّجريدي (أحمد مختار عمر، 1988)[5].

من خلال ذلك نلاحظ أنّ مصطلح الفونيم فكرة تتعلّق باللّغة المنطوقة، أي الكلام الذي يقدّم دائما صورًا مختلفة الآراء للفونيم الواحد على حين أنّ الكتابة في أي لغة لا تستعمل إلاّ رمزًا واحدًا لمجموعة صور الفونيم وهو رمز يلخّص كلّ الصّور المنطوقة.

ولعلماء اللّغة وعلماء الأصوات اللّغويّة نظريات متعدّدة في تحديد الفونيم، فماهو الفونيم؟

مصطلح الفونيم مصطلح إنگليزي، من الصّعب ترجمته بكلمة مفردة عربيّة لاختلاف وجهات النّظر في تفسيره بالتّفصيل، إلّا أنّ أقرب ترجمة هي (الوحدة الصّوتيّة) وهو أسرة من الأصوات المتشابهة (أحمد مختار عمر، 1988)[6].

فالفونيم «عبارة عن الصّور المختلفة للصامت الواحد"(حازم علي كمال الدّين 1999)[7] وهذه الصّور الصّوتيّة المختلفة يعبّر عنها في الكتابة برمز كتابي واحد ويرى الباحث رمضان عبد التّواب" أنّه في إمكاننا نحن أن نطلق عليه اسم حرف» (رمضان عبد التّواب، 1985)[8].

والصّور الصّوتيّة للصامت الواحد لا تؤدّي إلى اختلاف المعنى، ومثال ذلك:

–النّون السّاكنة قبل الصّوت الشّفويّ الأسناني وهو (الفاء) تنطلق شفويّة أسنانيّة.

–النّون السّاكنة قبل الصّوت الأسناني اللثوي (كالطّاء) تنطلق أسنانيّة لثويّة.

فالكلمتان (انطلق)، (انفلق) لا تختلفان في المعنى نتيجة اختلاف صوت النّون في النّطق، وإنّما يرجع اختلافهما في المعنى إلى فونيمي (الطّاء) و(الفاء) (حازم

علي كمال الدّين، 1999)[9]. فنظريّة الفونيم تبيّن لنا أنّ كل صامت في اللّغة إنّما هو عبارة عن وحدة صوتيّة أو عائلة صوتيّة (رمضان عبد التّواب، 1985)[10].

3. الفونولوجيا: (phonologie): علم يبحث عن الأصوات اللّغويّة من حيث خصائصها الوظيفيّة في الخطاب، فموضوعه هو الأصوات في تأليفها وتركيبيها أثناء الأداء الفعلي للكلام، ومن الباحثين من يعرّفه قائلا «الفونولوجيا أو علم وظائف الأصوات يدرس الصّوت الإنساني في تركيب الكلام ودوره في الدّراسات الصّرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة في لغة معيّنة كدراسة أصوات اللّغة العربيّة ودورها في الصّرف العربيّ وفي تركيب اللّغة العربيّة ودلالتّها»(أحمد مختار عمر، 1988)[11]، إذ ذكر الدّكتور ميشال زكرياء: «أنّه مجموع الدّراسات التي تبحث في تنظيمات الفونيمات الخاصّة باللغات المعروفة»(ميشال زكريا، 1983)[12].

ما يمكن ملاحظته من خلال هذين التّعريفين، أنّ الصّوت هو محور الدّراسة الفونولوجيّة ليس كعنصر معزول أو جزئي، بل في علاقته مع مجموع الأصوات وبذلك فلا يتأتى دراسة المعنى الوظيفي للنمط الصّوتي، من نظام اللّغة الشّامل إلاّ بالعمل على الفونيمات.

التّحليل الفونولوجي يتناول أصوات اللّغة باعتبارها عناصر رمزيّة تتكون منها اللّغة، فلا يهتمّ علم الفونولوجيا بالخصائص النّطقيّة والفيزيائيّة والسّمعيّة للأصوات باعتبارها هدفًا في ذاتها، بل يهتم بها باعتبارها مجرد وسيلة لتحديد الصّوت اللّغويّ في إطار اللّغة الواحدة.

فالفرق بين البحث الصّوتيّ والبحث الفونولوجي يتّضح من خلال ما تسجله أجهزة القياس، وما يؤثّر في المعنى، (فالكاف) في العربيّة لا تنطق النّطق نفسه في كل سياق صوتي، (فالكاف) التي بعدها كسرة في كلمة (كتاب) يختلف مخرجها عن (الكاف) المضمومة في (كُل)، وكذلك (اللام) العربيّة فإنّها تنطق تارة بالتّرقيق في (بالله) وأخرى بالتّفخيم في (والله)(محمود فهمي حجازي، 1998)[13].

يهدف البحث الفوفولوجي من خلال ذلك إلى تحديد العناصر المكوّنة للنظام اللّغويّ في ضوء التّمييز الموضوعيّ بين الوحدات الصّوتيّة والصّور الصّوتيّة المختلفة.

3. النّظريات المتعدّدة لعلم الأصوات الوظيفيّ: كان لتعدّد المناهج النّقديّة في التّحليل الأدبي، أثر واضح في الاهتمام بالنّصوص الأدبيّة وتحليلها، فقد تبنى كل عالم من العلماء منهجا يكون مجالاً في دراسته وبحثه بل أنشأت المدارس النّقديّة ذات المناهج المختلفة، فثمة المنهج النّفسي الذي يهتم بالدّراسات السّيكولوجيّة وأثرها في تبيان النّص وتشريحه، والمنهج البنيوي الذي يمثّل النّص الأدبي وحده بصرف النّظر عن سيرة المؤلّف وعصره، فهو يتعامل مع البنيات والمفردات التي تشكل النّص وتقود الباحث من خلالها إلى البيئة التي قيل فيها ومزايا العصر الذي وجد فيه الكاتب وكان من بين المناهج النّقديّة المنهج اللّغويّ، الذي يهتم بدراسة اللّغة والأدب دراسة تحليليّة من جوانب اللّغة المختلفة، الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة وغيرها، فهو يركز على لغة النّص الأدبي وحدها، ليبرز الجوانب الجماليّة من غير الالتّفات للغة النّص المدروسة.

إنّ اللّغة ظاهرة صوتيّة تختلف اختلافاً كلّيًّا عن سائر الرّموز الأخرى غير اللّغويّة، ومن ثمّ فإنّ دراستها دراسة علميّة تستوجب البدء بالأصوات بوصفها وحدات مميّزة تنتج عنها آلاف الكلمات ذات الدّلالات المختلفة، ولعلماء الأصوات نظريات وآراء متباينة في علم الأصوات الوظيفي نذكر منها ما يأتي:

1.3. مدرسة براغ: تعدّ مدرسة براغ رائدة في الدّراسة الصّوتيّة عامّة والدّراسة الوظيفيّة للأصوات (الفونولوجيا) خاصّة، انطلاقًا من اعتبارها أنّ الفونيم هو الوحدة الأساسيّة لهذه الدّراسة، فالفونيم في نظر تروبتسكوي هو: «أصغر وحدة فونولوجيّة في اللسان المدروس» (ميشال زكريا، 1983)[14] وعلى الرّغم من أنّه أفاض في تحليل فكرته إلاّ أنّه انتهى إلى مجموعة من القواعد تتعلّق بهذا المفهوم ومن هذه القواعد ما يلي:

1-إذا كان الصّوتان من اللسان نفسه، ويظهران في الإطار نفسه، وإذا كان من الممكن أن يحلّ أحدهما محلّ الآخر دون أن يحدث هذا التّبادل تغييرًا في المعنى حينئذ يكون هذان الصّوتان صورتين اختياريتين لفونيم واحد ويمكن أن نمثّل لهما بما يلي:

-صوت الجيم في العربيّة له صور نطقيّة مختلفة، غير أنّ هذه الصّور لا تغيّر المعنى، ومن هنا يجوز لنا أن نقول أنّ هذه الصّور صوتيّة لفونيم واحد هو (الجيم)؛

-تتحقّق هذه القاعدة في القراءات القرآنيّة لكلمة (مسيطر) أحيانًا تقرأ مرققة في شكل السّين، وأحيانا تقرأ مفخمة في شكل الصّاد، فالصّوتان هما إذن صورتان لفونيم واحد، ما دام لم يؤدّي إلى تغيير المعنى.

2-إذا كان الصّوتان يظهران تمامًا في الموقع الصّوتي نفسه، ولا يمكن أن يحلّ أحدهما محلّ الآخر دون تغيير في المعنى، حينئذ يكون هذان الصّوتان صورتين واقعتين لفونيمين مختلفين مثل: حال، جال، قال، سال، نال، فالأصوات الأولى في الكلمات المذكورة فونيمات مستقلّة ليس لها معنى في ذاتها وقادرة على تغيير المعنى.

3-إذا كان الصّوتان من اللسان نفسه متقاربين فيما بينهما من النّاحيّة السّمعيّة أو النّطقيّة، ولا يظهران مطلقا في الإطار الصّوتي نفسه، فإنّهما صورتان تركيبيتان لفونيم واحد، مثال ذلك: فونيم النّون في العربيّة إذ له صور متعدّدة تظهر كلّ واحدة منها في موقع معين فالنّون السّاكنة قبل صوت أسناني كالثّاء تنطق أسنانيّة، والنّون السّاكنة قبل صوت لثوي كالقاف تنطق لثويّة وهكذا تتعدّد صور النّون بتعدّد الأصوات التّاليّة لها(عبد الصّبور شاهين، 1993)[15] من الواضح أن تروبستكوي رغم إصراره على تعريف الفونيم تبعًا لوظيفته فقد اعتمد على تحديد الجانب العضوي والسّمعي في وصفه.

لقد خصّص جاكبسون قسمًا كبيراً من كتابه (essais de linguistique générale) للبحث عن خصائص مشتركة بين جميع الأنظمة اللّسانيّة في مجال الفونولوجيا وكان ذلك بمحاولة جمع جميع الاختلافات الممكنة، والقيام بحصرها وضبطها وفق التّضاد القائم بينهما، سواء أكان هذا التّضاد في المستوى النّطقي أم في المستوى السّمعي ممثلة في جميع اللغات الطّبيعيّة وإنّما يمكن لكلّ نظام لسانيّ أن ينتقي ما يناسبه من هذه السّمات التي يضبط مجالها على أساس التّخالف، فإذا أردنا التّمييز بين (الباء/والميم) نعمد إلى سمة الغنة التي تعدّ مميّزا فاصلاً بين الصّوتين فيكتب الخلاف بالشّكل التّالي:

–ب / (–) غنة.

–م / (+) غنة.

فسمة الغنة تعدّ مميزاً بارزاً لفئات الوحدات الفونولوجيّة، فهي من هاهنا سمة فونولوجيّة كليّة تظهر في جميع الأنظمة اللّسانيّة (أحمد حساني، 2013)[16] وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ كلّ من تروبستكوي وجاكبسون قد اتجها في تعريفهم للفونيم اتجاهاً عقلياً متأثرين (بودوان دي كورتوناي) الذي عرّف الفونيم «بأنّه الصّورة العقليّة للصوت»(جورج مونان، 1972)[17].

فهو من أنصار المدرسة العقليّة النّفسيّة التي ترى أنّ الفونيم صوت واحد له صورة ذهنيّة تجريديّة، يستطيع المتكلّم استحضاره في ذهنه ويستطيع لا شعوريا أن ينطقها في الكلام الفعليّ وقد ينجح في ذلك أو لا ينجح.

2.3. المدرسة الرّوسيّة: إذا كانت النّزعة "البنيويّة الرّوسيّة" قد ظهرت للوجود عام 1928، وذلك في المؤتمر العالمي لعلوم اللسان المنعقد بمدينة (لاهاي)، عندما قدّم كلّ من (جاكبسون وكارسفسكي وتروبستكوي) بحثاً علميّاً يتضمّن الأصول الأولى لهذه النّزعة، ولم يلبثوا أن أصدروا بعد ذلك بياناً أعلنوه في المؤتمر الأوّل للغويّين السّلاف الذي انعقد في براغ عام (1929) استخدموا فيه كلمة (بنيّة) بالمعنى المستعمل اليوم، ودعوا فيه إلى اصطناع المنهج البنيوي بوصفه منهجاً علمياً صالحًا لاكتشاف قوانين النّظم اللّغويّة وتطورها. فإنّ الأصول الأولى للحركة البنيويّة الرّوسيّة قد تكونت في مدارس خاصّة عرفت بمدارس الدّراسات السّلافيّة التّقدميّة وهي تمثل في نفس الوقت المدارس البنيويّة الرّوسيّة التي لم تنبثق عنه الفكر السّوسيري وهي:

3.3. مدرسة قازان: رائد هذه المدرسة هو (بودوان دي كورتوناي) الذي استطاع أن يقدّم أفكاراً جليلة وملاحظات مهمّة استطاعت أن تبشر ببعض سمات المنهج البنيوي، فيجوز لنا أن نقول من النّاحيّة التّاريخيّة أنّ الإرهاصات الأولى لعلم الأصوات الوظيفي بدأت مع أفكار (بودوان) فقد أومأ إلى ذلك جورج مونان إذ قال: «يرجع اهتمامنا الخاص ببودوان في أيامنا هذه إلى كونه استكشف الطّبيعة اللّغويّة للفونيم»(جورج مونان، 1972)[18].

إذ يرجع الفضل إلى بودوان في اكتشاف الطّبيعة اللّغويّة للفونيم، فهو أوّل من استخدم مصطلح فونيم من أجل تعيين الوحدة الصّوتيّة غير القابلة للتجزئة في مقابل الصّوت الإنساني الذي يمكننا تحليل خصوصياته المتعلقة بنطقه لدى شخص ما(وفاء محمّد كامل، 1997)[19].

يظهر هذا الوعي العميق بالقيمة الوظيفيّة للفونيم عند (بودوان) من خلال المقال الذي نشره عام 1869 وكان مقالاً عميقاً، إذ عبّر فيه عن مدى إدراكه للوظيفة التّمييزيّة للعناصر الصّوتيّة في الكلام وهو يرى في هذا المقال ضرورة التّمييز بين الصّوت الخام في الكلام، أو بتعبير آخر بين ما يلفظه المتكلّم حقًّا، وشيء آخر هو الفونيم أي ما يظنّ المتكلّم أنّه يلفظه والمستمع أنّه يسمعه(جورج مونان، 1972)[20].

لقد كان (بودوان دي كورتوناي) ذا وعي عميق بالقيمة الوظيفيّة للفونيم حتى حدّ تعبير جورج مونان، كما أعطى للفونيم تفسيراً نفسيّاً حينما قام بضرورة التّمييز بين نوعين من علم الأصوات:

- علم الأصوات العضوي وتتمثّل وظيفته في دراسة الأصوات المنطويّة بالفعل؛
- علم الأصوات النّفسي وهدفه دراسة الصّور الذّهنيّة للأصوات التي تمثّلها أو تحاول تحقيقها الأصوات المنطوقة.

4.3. مدرسة دي سوسير: بدأ دي سوسير دراسة الفونيم انطلاقاً من التّمييز بين جانبين من جوانب النّشاط الكلامي:

- الجانب العضوي؛
- الجانب السّمعي.

حيث يقول في هذا الشّأن «يقتصر عمل كثير من علماء النّظام الصّوتي على العمليّة الصّوتيّة، أي إنتاج الأصوات عن طريق الأجهزة الصّوتيّة (كالحنجرة والفم وغيرها) ويهملون الجانب السّمعي، إنّ هذه الطّريقة غير صحيحة فالانطباع السّمعي يصلنا بصورة مباشرة كما تصل الصّورة التي تنتجها الأعضاء الصّوتيّة، أضف إلى ذلك أنّ الانطباع السّمعي هو أساس أي نظريّة صوتيّة» (فردينان دي سوسير 1985)[21].

نستنتج من هذا القول أنّ الصّوت لا يتحدّد بالوصف العضوي فحسب لأنّه يعسر على الدّارس إدراك البداية والنّهاية في السّلسلة الصّوتيّة المنطوقة، وما كان ذلك إلاّ نشاط الأعضاء النّطقيّة أثناء عمليّة إنتاج الأصوات والتّلفظ بها يكون نشاطا متواصلا ومتسلسلاً بإطراء رتيب، ممّا يسمح للملاحظ بإدراك الحركة الخطيّة للأثر الصّوتيّ لذلك يرى دي سوسير أنّه: «إنّ تقسيم الأصوات في السّلسلة المنطوقة لا يكون إلاّ على أساس الانطباعات السّمعيّة» (فردينان دي سوسير، 1985)[22].

فالفونيم عند دي سوسير هو الحصيلة النّهائيّة للانطباعات السّمعيّة وحركات النّطق وهو الأثر المتبادل للوحدات السّمعيّة والوحدات المنطوقة، فهو وحدة مركّبة لها جذر في السّلسلة المنطوقة وآخر في السّلسلة السّمعيّة (فردينان دي سوسير 1985)[23].

من خلال هذا نلاحظ أنّ الفونيم في نظر دي سوسير مفهوم مركب لابدّ من تصوّره باعتبار الجانب السّمعي والجانب العضوي، فكل منهما شرط في وجود الآخر.

4. أصول نظريّة الفونيم في الدّرسات اللّغويّة العربيّة: إنّ المتتبّع للدراسات اللّغويّة العربيّة يجد فكرة الإستبدال الفونيمي* قد تفطن إليها العرب منذ قرون عدّة وذلك من خلال تباين دور الأصوات في التّمييز بين الدّلالات المعجميّة للكلمات فهذا (ابن جني) قد أدرك بعبقريته الفذة أنّ للفونيمات دوراً كبيراً في تحديد دلالة الكلمة ومثال ذلك حديثه عن معاني (قضم) و(خضم) قائلا: «فالخضم لأكل الرّطب كالبطيخ والقيثاء وما كان نحوهما من المأكول الرّطب، والقضم للصّلب اليابس نحو قضمت الدّابة شعيرها ونحو ذلك»(أبو الفتح عثمان ابن جني، د ت)[24].

وكذلك حديثه عن (النّضح والنّضخ) في قوله: «فالنّضح للماء ونحوه، والنّضخ أقوى من النّضح، قال سبحانه وتعالى: ﴿ فيهما عينان نضاختان﴾»[25]. فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضّعيف والخاء لغلضتها لما هو أقوى منه (أبو الفتح عثمان ابن جني د ت)[26].

وبذلك يكون ابن جني قد بيّن أنّ للفونيمات دوراً تمييزيّاً بين الكلمات حين أقام صوتًا مكان آخر فتغيرت دلالة الكلمة معجميا، وهذا هو الأساس الذي اعتمدته نظريّة الفونيم الوظيفيّة لدى علماء الغرب.

وممّا يدل على فطنة العرب إلى هذه القضيّة أيضًا حديثهم عن معنى كلمة (الأز الهز) ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ألم ترى أنا أرسلنا الشّياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾[27]. فهذا في معنى تهزهم هزا، والهمزة أخت الهاء فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنّهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنّها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النّفوس من الهزة، لأنّك قد تهز ما لا بال له كالجذع وساق الشّجرة ونحو ذلك (بدري زهران، 1986)[28].

ومنه العلماء الذين استعملوا طريقة التّبديل الفونيمي في مؤلّفاتهم نذكر: ابن دريد والثّعالبي والفارابي والسّيوطي فهذا الأخير قد أورد في كتابه "المزهر" ألفاظاً مختلفة في فونيم واحد تحمل دلالات مختلفة منها: النّقش، الرّقش، فالنّقش في الحائط والرّقش في القرطاس، ومنها الوشم والوسم، فالأوّل في اليد والثّاني في الجلد (محمّد بوعمامة 1995)[29].

كما تفطّن علماء العربيّة القدماء إلى خطورة الحركات في التّمييز بين الكلمات فجاءت العلامات المعروفة وهي الفتحة والضّمة والكسرة للدّلالة على فونيم الفتحة والضّمة والكسرة، حين تكون قصيرة (حلمي خليل،1998)[30] وذلك حين أدركوا وظيفتها في تمييز المعاني النّحويّة وحتى المعجميّة، فالذّلُ غير الذّلِ والبر غير البر،... وغير ذلك.

لم يقع العرب في حدود التّبديل الفونيمي بل درسوا الإبدال الصّوتي ومختلف التّغيرات الصّوتيّة للفونيم الواحد، ومثال ذلك فونيم الصّاد في كلمة (الصّقر) (الزّقر) (السّقر)، فالصّاء والزّاي والسّين أصواتهم مختلفة أي ألوفونات لفونيم الصّاد، إذ أنّ الكلمات الثّلاث جميعا بمعنى (الصّقر) الطّائر المعروف كما أشار إلى ذلك السّيوطي في كتابه " المزهر"(السّيوطي، 1998)[31].

وهذا دليل على أنّ العرب قد عرفوا ما يسمّى بالألوفونات الحرة، ويؤكّد ذلك أبو الطّيّب اللّغويّ: أنّ أبا حاتم السّجستاني قال: قلت لأمّ الهيثم هل تبدل العرب من الجيم ياء في شيء من الكلام؟ فقالتّ نعم، ثم أنشدتني:

إذا لم يكن فيكن ظلّ ولا جنّي فأبعدكن الله من شيرات(إبراهيم السّامرائي 1983)[32].

وكذلك ورد في تاج العروس للزبيدي، أنّ (الثّيّب) ومعناه المرأة التي تزوّجت وفارقت زوجها تنطق بالتّاء في بعض المناطق. بمعنى أنّ التّاء ألوفون للثّاء في هذا الموضع (الزّبيدي، 1966)[33].

لقد كانت الدّراسة الصّوتيّة عند العرب الأوائل تعتمد على أسس دلاليّة صرفيّة وهو ما يعرف بنظريّة التّقابل الاستبدالي أو التّبديل الفونيمي في العصر الحديث، أي أنّنا إذا استبدلنا صوتا بآخر حدث اختلاف في المعنى الوظيفي للكلمة سواء أكان ذلك المعنى صرفيّاً أم نحوياً أم دلاليّاً فإذا حدث هذا الاستبدال الصّوتي ولم يحدث اختلاف في المعنى لم تكن لدينا وحدات صوتيّة أو فونيمات وإنّما كان معنا صور صوتيّة لفونيم واحد مثال ذلك كلمة (جمل) بتعطيش (الجيم) كما تنطق في بلادنا أو بدون ذلك كما ينطقها أكثر المصريين فإنّ المعنى لا يختلف(حامد الشّنبري 2004)[34].

من الملاحظ أنّ هذه النّظريّة قد عفا عنها الدّهر وأصبحت الدّراسات الصّوتيّة الحديثة تعتمد على نظريّة أخرى إلى جانب هذه النّظريّة التي لا يراعى فيها الوظيفة الدّلاليّة للصوت فقط وإنّما تراعى الخصائص النّطقيّة لهذا الصّوت أو ذاك وتعرف هذه الأخيرة باسم الصّفات الفارقة (حامد الشّنبري، 2004)[35].

تعتمد هذه النّظريّة أساساً على تقسيم صفات الأصوات إلى مجموعتين:

أ-مجموعة الصّفات الفارقة الأساسيّة.

ب-مجموعة الصّفات غير الفارقة الأساسيّة أو الثّانويّة.

أصحاب هذه النّظريّة يرون أنّ الفونيم لا يعدو بأن يكون حزمة من الصّفات الأساسيّة التي لابدّ منها جميعا، لكي يعدّ الصّوت وحدة مستقلة من وحدات لغة ما. ولابد أن تتمايز الوحدات الصّوتيّة فيما بينها بصفة فارقة واحدة على الأقل.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ علماء العربيّة القدماء قد سبقوا الغربيّين في اكتشاف أصول هذه النّظريّة عندما فرقوا بين أصوات الإطباق على أساس أنّها الصّفة الفارقة الوحيدة بين كل من الصّاد والسّين والطّاء والدّال والظّاء والذّال، وقد عبّر عن ذلك سيبويه بقوله «لولا الإطباق لصارت الصّاد سينا والطّاء دالا والظّاء ذالا، ولخرجت الضّاد من الكلام لأنّه ليس موضعها شيء غيرها» (سيبويه، 1966)[36].

كما لا ننسى صنيع سيبويه في تصنيفه للأصوات وتحليلها على وفق ما تراه معظم المدارس الصّوتيّة المعاصرة، فقد عمد المعاصرون إلى دراسة الأصوات على نهج ما يعرف باسم الفونولوجيا (علم وظائف الأصوات).

وهو نهج يعنى في الأساس بالنّظر إلى الأصوات بوصفها أنماطاً أو وحدات أو فونيمات أي حين يتناول (الباء) مثلا يتناولها بوصفها (باء) لا (تاء أو ثاء) معناه أنّ لكلّ من هذه الوحدات وظيفتها وقيمتها في بناء الكلمة وفقاً للسياق (كمال بشر 2005)[37].

فنلاحظ أنّ هناك علاقة وثيقة بين دراسات اللّغويّين العرب الأوائل ودراسات اللّغويّين المحدثين، وكمثال في ذلك ظاهرة المماثلة، فقد ذكر الدّكتور إبراهيم أنيس: «أنّ ما نسمّيه المماثلة وهي الظّاهرة التي سمّاها سيبويه ومن جاءوا بعده بالمضارعة حينا وبالتّقريب حينا آخر...وتناول سيبويه كذلك ما سمّيناها بأقصى درجات التّأثر بين المتجاورين أي الإدغام» (إبراهيم أنيس، 2017)[38].

كما ربط (بروجستراسر) بين مصطلحات الإدغام، التّشابه، التّماثل وذلك في قوله: «فقد عرفنا أحيانا العلّة الثّانويّة الصّوتيّة وخاصّة في التّغييرات الاتفاقيّة، وبعض المطردة المقيدة بالشّروط، وأهم مثال لهذا التّشابه والتّماثل (assimilation)» أي أنّ حروف الكلمة مع توالي الأزمان كثيرا ما تتقارب بعضها من بعض في النّطق وتتشابه وهذا التّشابه نظير لما سماه قدماء العرب إدغاماً(حامد الشّنبري، 2004)[39] وقول العرب إنّ النّون والرّاء لا تجتمعان في صدر كلمة عربيّة من صميم البحث الفونولوجي: «ولذلك حكموا بعجمة (نرجس) وما شابهها، لأنّها ألفت بين أصوات لا تؤلّف العربيّة بينهما في كلماتها(أحمد عزوز، د ت)[40].

من خلال هذا القول نلاحظ أنّ العرب القدامى قد اهتموا بالتّمازج الصّوتي في اللّغة وربطوا اللّغة بالصّوت باعتباره امتداداً لبنيتها التّركيبيّة وأصلا للأفكار المنطوقة في اللّغة وهي مسائل عالجها النّص اللّساني الغربيّ مع (دي سوسير) بعد مضي قرون، من مدخل أنّ اللّغة فكرة منظّمة مقرونة بالصّوت الأمر الذي يفترض وجود عنصرين يشتركان في تأديّة اللّغة لوظيفتها، وهما الأفكار والأصوات في سياق الرّبط بينهما.

5. خاتمة: وفي الأخير يمكن القول باعتزاز أنّ الألفباء العربيّة قد راعت بكل دقّة ووضوح مبدأ الأخذ بفكرة الفونيم، والتّعبير عنه بصوره المتعدّدة برمز واحد ومثله التّاء والثّاء،... مهما تعدّدت صور هذه الفونيمات في الكلام المنطوق، وكانت النّتيجة وضع ثمانيّة وعشرين رمزاً لثمانيّة وعشرين فونيماً، حدث هذا بكل دقّة في فونيمات الأصوات الصّامتة، وحدث مثله في فونيمات الحركات (الأصوات الصّائتة).

معنى هذا أنّ فكرة الفونيم أو الوحدة الصّوتيّة القديمة أدركها العرب وغيرهم من الأمم، وإن كانت بصورة غائمة لا تؤهلها بأن تكون نظريّة واضحة صالحة للتطبيق والتّحليل الصّوتي، كما هو واضح في أعمال اللّغويّين القدامى. وبمرور الزّمن واتساع التّفكير اللّغويّ. والتّعمق في أبعاده وجوانبه لمعت أفكار جديدة في هذا الشّأن من بعض الرّواد من الدّارسين في أواخر القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين وانتشرت فكرة الفونيم واتسعت دوائرها حتى اختطفها الأمريكان.

الهوامش:

***الإستبدال الفونيمي:** (commutation): هو وضع صوت مكان آخر في الرّتبة نفسها من الكلمة ذاتها وملاحظة ما يحدث فيها من تغيير في المعنى فإذا تغيّر معنى الكلمة نقول عن ذلك الصّوت أنّه فونيم، وإذا لم يتغير معناه قلنا عنه أنّه ألوفون.

[1]–أحمد عزوز، الأصوات اللّغويّة، ديون المطبوعات الجامعيّة، وهران، د ت، ص 16.

[2]–المرجع نفسه، ص 17.

[3]–عصام نور الدّين، علم الأصوات اللّغويّة، الفونتيكا، دار الفكر اللبناني بيروت، ط1 1992، ص 07.

[4]–أحمد عزوز، الأصوات اللّغويّة، المرجع السّابق، ص 17.

[5]–أحمد مختار عمر، دراسة الصّوت اللّغويّ، جامعة القاهرة، ط 22، 1418/1988، ص 161.

[6]–المرجع نفسه، ص 162.

[7]–حازم علي كمال الدّين، دراسة في علم الأصوات، مكتبة الأدب، (القاهرة)، ط1، 1999 –1420، ص 63.

[8]–رمضان عبد التّواب، إلى علم اللّغة، مكتبة الخاجقجي، القاهرة، 1985، ص 83.

[9]–حازم علي كمال الدّين، دراسة في علم الأصوات، ص 64.

[10]–رمضان عبد التّواب، المدخل إلى علم اللّغة، ص 83.

[11]–أحمد مختار عمر، دراسة الصّوت اللّغويّ، ص 167.

[12]–ميشال زكريا، الالسّنيّة –علم اللّغة الحديث –المبادئ والأعلام، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، 1983، ص 209.

[13]–محمود فهمي حجازي، المدخل إلى علم اللّغة، دار قباء، القاهرة، 1998، ص36.

[14]–ميشال زكريا، الالسّنيّة –علم اللّغة الحديث –مبادئها وأعلامها، ص 209.

[15]–عبد الصّبور شاهين، في علم اللّغة العام، مؤسّسة الرّسالة (بيروت)، طبعة6 1993/1413، ص 125.

[16]–أحمد حساني، مباحث في اللسانيات (مبحث صوتي، دلالي، تركيبي)،–ديون المطبوعات الجامعيّة، وهران، 2013، ص 93.

[17]–جورج مونان، تاريخ علم اللّغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، دمشق،1972، ص 31.

[18]–المرجع نفسه، ص 30.

[19]–وفاء محمّد كامل، البنيويّة في اللسانيات، عالم الفكر، مجلّد 26، العدد 02، 1997 ص 238.

[20]–جورج مونان، تاريخ علم اللّغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، المرجع السّابق، ص 31.

[21]–فردينان دي سوسير، علم اللّغة العام، مراجعة: مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربيّة بغداد، 1985، ص 56.

[22]–المرجع نفسه، ص 57.

[23]–نفسه، ص 58.

[24]–أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجار، دار الكتاب العربي بيروت، ج1، د ت، ص 157.

[25]– سورة الرّحمن الآية 66.

[26]–أبو الفتح عثمان، الخصائص، المصدر السّابق، ص 158.

[27]–سورة مريم الآية 83.

[28]-بدري زهران، مبحث في قضيّة الرّمزيّة الصّوتيّة، دار المعارف (القاهرة) ط1، 1986-1987، ص 144.

[29]-محمّد بوعمامة، علم الدّلالة بين التّراث وعلم اللّغة الحديث، رسالة دكتوراه، 1995 قسنطينة، ص 88.

[30]-ينظر، حلمي خليل، الكلمة دراسة لغويّة معجميّة، دار المعرفة الجامعيّة، مصر 1998، ص 39.

[31]-السّيوطي، المزهر في علوم اللّغة، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، 1998، ص 263.

[32]-إبراهيم السّامرائي، التّطور اللّغويّ التّاريخي، دار الأندلس (بيروت) ط3، 1983، ص 115 - 116.

[33]-ينظر: الزّبيدي، تاج العروس، تحقيق: علي هلالي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ج2، 1966، ص 114.

[34]-حامد الشّنبري، النّظام الصّوتي للغة العربيّة -دراسة وصفيّة تطبيقيّة، مركز اللّغة العربيّة (القاهرة) ط، 1425 -2004.

[35]- المرجع نفسه، ص 07.

[36]-سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السّلام هارون، عالم الكتب، بيروت، 1966، ج4 ص 426.

[37]-كمال بشر، التّفكير اللّغويّ بين القديم والحديث، دار غريب، القاهرة، 2005، ص 391-392.

[38]-إبراهيم أنيس، الأصوات اللّغويّة، مكتبة النّهضة، القاهرة، 2017، ص 203.

[39]-حامد الشّنبري، النّظام الصّوتي للغة العربيّة (دراسة وصفيّة تطبيقيّة)، ص 08 -09

[40]-أحمد عزوز، علم الأصوات اللّغويّة، ص 16.